الفصل التاسع

على أدهـم المُـثـقَـف والمُثقِّف الكبير الذى نسيناه

في عام ١٩٩٧ احتفلت مصر بمرور مائة عام على ميلاد على أدهم (١٨٩٧ - ١٩٨١)، ويمر هذا العام ثلاثون سنة على وفاته. وقد عرفت هذا المثقف الكبير والعَلَم المَنْسِىّ، من المقالات التى كان ينشرها فى مجلة «العربى» الكويتية، فى ستينيات وسبعينيات القرن الماضى، وكنت أحرص على قراءتها ومتابعتها، حرصى على اقتناء المجلة ذاتها، والاحتفاء بما كانت تحتويه بين دفتيها من كنوز الفكر، وثمرات القرائح والأقلام.

ثم أحببته أكثر، حينما عرفت - بعد ذلك - أنه من حواريى الأستاذ العقاد ومحبيه، وقد آثَرَهُ الأستاذ بتقديم بعض كتبه وإنتاجه الأدبى مثل «صقر قريش»، كما كان يُقدِّرُ علمه وثقافته وسعة اطلاعه، ويستمع لبعض نقداته، حتى إن الأستاذ أدهم يُشير إلى ذلك فى بعض مقالاته، وكأنه يرد على القائلين بأن شخصيته قد ذابت فى محيط الأستاذ العقاد، أو أن العقاد نفسُه كان يعتز بآرائه ولا ينزل عنها، ويعتقد بصوابها حتى لو جانبه الصواب فيها، وحينما رأى أدهم أن هذا أمر يخالف

الحقيقة، كتب يقول: كان العقاد واسع الصدر فى المناقشة على خلاف ما يظنه الكثيرون، ولكن على شريطة أن يكون مناقِشُه جادا فى مناقشته مُخلصا فى جَدَلِه، يُحسن اختيار الحُجج ويجيد أدب الحوار، فإذا بدرت منه بادرة تنم على شىء من الزراية والاستخفاف، فهنا تثور ثورة العقاد التى لا تُبقى ولا تذر؛ ولذلك كان يَحْسُن بمن يتصدى لمناقشة العقاد أن يكون عالما بطباعه عارفا بشدة حساسيته من ناحية كرامته الشخصية، ومكانته الأدبية، ولم يكن عند العقاد - على ما عرف عنه من الكبرياء وفرط لاعتداد بالنفس - مانع من تصحيح ما قد يتورط فيه من الأخطاء فى الأدب والتاريخ، إذا نوقش بالطريقة التى لا تجرح كرامته، ولا تنال من إبائه، وقد عَهِدتُ فيه هذه الخليقة خلال معرفتى الطويلة له، وأذكر أنى قبل موته بأشهر قرأت له فى اليوميات التى كان يكتبها فى جريدة «الأخبار» يوم الأربعاء من كل أسبوع كلمة عن الناقد الألمانى الشهير «لسنج» ورد فيها أنه كان يهوديا، ولما كنت أعلم أن لسنج كان مسيحيا قحا، لذلك اغتنمت فرصة زيارتى له فى ندوة يوم الجمعة التالى، وقلت له إن مبلغ علمى أن لسنج من أصل ألمانى مسيحى، واحتكمنا إلى دائرة المعارف اليهودية، وكان ضمن ما ورد بها أن «لسنج» كان يميل إلى اليهود، واقتنع الأستاذ الكبير، وصحح ذلك فى يوميات الأسبوع التالى[1].

(١) على أدهم (١٩٦٥). مجلة «قافلة الزيت» السعودية، عدد يناير.

وفيما تقدم ندرك أن الرجل قامة شامخة فى الثقافة الموسوعية شأنه شأن الكبار كطه حسين والعقاد وأحمد أمين والزيات والمازنى وغيرهم. على أن الرجل كان يتميز عن هؤلاء بعمق ثقافته التاريخية من ناحية، واهتمامه بالأدب الروسى من ناحية أخرى، كما تميزت كتاباته بالعمق والنزعة الفلسفية مع الإحاطة والموسوعية والشمول.

ثقافته

لم يُتِمْ على أدهم تعليمه فقد توقف عند ما يُعرف الآن بالمرحلة الثانوية، فبعد حصوله على شهادة الكفاءة، حصل على شهادة البكالوريا سنة ١٩١٦، ودخل مُعترك الحياة بهذا القدر من التعليم، ليتدرج فى وظائف كثيرة، فبلغ - كما ذكر الأستاذ حبيب الزحلاوى فى «شيوخ الأدب الحديث»- درجة مُتقدمة فى وظائف الحكومة بجده وكفايته، دون ما اعتماد على كبير أو وساطة وزير أو تزلف إنسان. إلا أن ثقافته لم تقف به عند هذا الحد، فقد برَّ الكثيرين ممن أحرزوا أعلى الشهادات وأرقاها، لا نستثنى منهم عددا غفيرا ممن حصلوا على درجات الماجستير والدكتوراه. لم تكوِّنه جامعة، بل كوَّن نفسه مع الزمن، ونظم مُطالعاته وفق مزاجه وميوله، وأخذ مثلما فعل القدماء من كل فن بطرف، فتحققت له الموسوعية، ثم إنه اهتم ببعض الجوانب فى الوقت ذاته كاهتمامه بالأدب الغربى، والأدب الروسى منه على وجه الخصوص، كما ركز اهتمامه بالتاريخ وفلسفته، وعلم الاجتماع وفلسفته، كما كان له ميل وولع بالتراجم للعظماء.

المؤرخ

استغرقت الكتابة فى مجال التاريخ وفلسفته وتفسيره من وقت الأستاذ على أدهم وجهده الكثير والكثير. وعلى هامش ما تعيشه مصر الآن من ثورة عظيمة قامت فى الخامس والعشرين من يناير ولا تزال تتشكل بوحيها وفى ضوئها أمور كثيرة فى مصر، فنذكر فى هذا السياق أثر العلاقات الاقتصادية فى الثورات كما أوضحه الأستاذ على أدهم[1]، الذى يذهب إلى أن العلاقة بين الثورات والعامل الاقتصادى قوية، ويذهب إلى أن المسائل الاقتصادية ذات دور بارز فى معظم الثورات، ويبين أن الضرائب كانت من جملة أسباب قيام الثورة الإنجليزية، والأمريكية والفرنسية. ولكنه يلاحظ أيضا أن معظم البلدان التى اشتعلت فيها الثورات الكبيرة لم تكن تعانى عُسْرا اقتصاديا شديدا، وإنما الحكومات هى التى كانت تعانى الضائقة المالية، ولا تُحْسِنُ تدبير الأحوال الاقتصادية. ومن جملة ملاحظاته أنه لا يشترط أن تنشأ الثورات فى المجتمعات المتردية اقتصاديا؛ لأن الحاصل أن الثورات الكبيرة ظهرت فى مجتمعات متقدمة اقتصاديا، وإن لم ينف ذلك وجود جماعات تشكو الظلم. فعند على أدهم أن الضيق الاقتصادى الذى تعانيه طبقة المحرومين ليس من العلامات الدّالة على حتمية وقوع الثورة، وإنما تثور بعض الجماعات المستعلية إذا اعترض تقدمها فى الحياة

(١) أحمد حسين الطماوى (١٩٩٠). على أدهم بين الأدب و لتاريخ. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ص ٧٥.

عقبات كبيرة، فتقوم بالدعاية فى المجتمع واستغلال الأوضاع السيئة وإظهار الظلم العام[1].

كما أن لعلى أدهم كتابات تاريخية متعددة، لاسيما ما يرتبط منها بالحقبة الخاصة بالخلافة الإسلامية فى الأندلس.

المُترجم

من أبرز الأنشطة الثقافية التى مارَسَها الأستاذ على أدهم الترجمة. ولم يكن الرجل يترجم «أى شىء والسلام»، ولكن كانت له رؤية ووجهة نظر فيما يستحق أن يُنقل عن الغرب، لاسيما وأن الترجمة عنده ذات رسالة مُهمَّة لا يضطلع بها إلا المترجم والمثقف الكُفء القادر على الإحاطة بمغاليقها وفك طلاسمها، فهى ليست مجهودا فكريا أو ذهنيا عاديا أو آليا يقوم به المترجم، ثم يتقاضى عنه أجرا آنياً ما كان. وفى هذا يقول: الترجمة مسألة جوهرية فى التفاهم الدولى والتقارب الأممى، وقد وسَّعت الجرائد والمجلات والإذاعة والتليفزيون آفاقنا الفكرية، بيْدَ أنها فى الوقت ذاته تعمل على تأكيد الأخطاء الناشئة عن الجهل بأحوال الأمم، والعجز فى فهم مختلف اللغات. وقد أصبح للكلمة المسموعة أو الكلمة المقروءة تأثير بعيد المدى، عظيم الخطورة، وزاد ذلك فى خطورة المزالق السياسية، أو الفنية، أو الثقافية. أو اللغوية التى تعرض للمترجم، والتبعات المُلقاة على عاتقه فى مؤتمر

(١) على أدهم (١٩٦٤). مقال نشر فى عدد ديسمبر سنة ١٩٦٤فى مجلة «الكتاب العربى».

قمة سياسى أو مؤتمر علمى أو أدبى تبعات ضخمة، وتتطلب مواهب عالية من نوع خاص وتفوقا ملحوظا».

وقد كان ينادى بتوفير القواميس اللغوية والموسوعات التى تضم شتيتا من المعلومات عن كل شىء يحتاج إليه المترجم، بل وكان ينادى بتأليف بعض هذه الموسوعات وليس ترجمتها فقط. كما كان ينصح المترجمين باستكمال أدواتهم؛ إذ إن الترجمة ليست عملية روتينية أو آلية، وإنما هى عملية مُعقدة تستلزم أن يكون المترجم مثقفا وفاهما للموضوعات لتى يقوم بترجمتها. كما كان يبين أن هناك فرقًا بين الترجمة الفورية التى لا تتوافر لها كل مقومات الدقة، والترجمة الأدبية الرصينة المتأنية التى يرجع فيها المترجم إلى القواميس ويستشير الموسوعات المتخصصة ويراجع نفسه المرة تلو الأخرى حتى تخرج الترجمة أقرب ما تكون إلى روح النص الأصلى.

هذا. ولم يكتف الرجل بهذه التنظيرات وإنما مارس الترجمة، حيث قام بترجمة الكثير من الكتب فى مجالات متعددة، فمن الأدب بمجالاته الكثيرة إلى النقد، والتاريخ والسياسة والاجتماع، وغيرها من علوم وتخصصات. أما ما قام به من مُراجعة للترجمات الكثيرة التى قام بترجمتها غيْرُه، فيصعب حصره. ومن مترجماته الأدبية: روضات الفردوس - فيراتا - الخطايا السبع - صديق الشِّدَّة - رينيه، وغيرها.

النقد والتاريخ

اهتم على أدهم بالنقد بشكل عام، واعتمده كأحد الروافد المهمة، التى تسعى نحو تعميق قيم الاستنارة والحرية، وتطور الفنون والآداب، وحفز التقدم وصنع الحضارة. وقدم مجموعة من الكتب فى هذا الرافد الأدبى المهم، منها كتابه «فصول فى الأدب والنقد والتاريخ»، الذى كتب فيه حول: النقد العلمى والنقد التأثيرى، النقد والمذهب التعبيرى، تين ومذهبه فى النقد، سانت بيف وطريقته فى النقد، توماس كارلايل والنقد الأدبى، سبنجارن والنقد الأدبى، ما ثيو أرنولد ووظيفة النقد، الناقد الإيطالى دى سانكتيز، الأدب والمجتمع، الأدب والحياة، وظيفة اللغة ليست إخفاء الأفكار، محاورة بين عالم وأديب، وغيرها.

أما الكتاب الذى أصدره له المجلس الأعلى للثقافة وأعده الأستاذ نبيل فرج، بمناسبة احتفالية أقيمت حوله، فكان بعنوان «مقالات متنوعة»، ومن فصوله المُهِمَّة التى تخص النقد الأدبى ما يلى: النقد الموضوعى والنقد الذاتى - اختلاف أحكام النقاد - الخلق والنقد، وغيرها.

أما كتابه «على هامش الأدب والنقد»، فقد كرَّس معظم فصوله حول النقد الأدبى ودوره ووظيفته إلى غير ذلك من موضوعات حول هذا الجانب.

كما كتب الرجل مجموعة فصول ومقالات حول «النقد والجمال فى الروسيا» نُشِرَت فى مجلة «الرجاء» سنة ١٩٢٢، ولم تُجْمَع بعدُ فى كتاب.

كمـا احتوت كتبه الأخرى مثل: «صـور أدبية»، و«تلاقى الأكفاء»، و«ألـوان من أدب الغرب»، وغيرها على خطـرات ونتف وفصول حول النقد الأدبى أيضا.

كمـا كان للكاتب اهتمام بالغ بالتاريخ الـذى تعرض له من الجانب الأدبى والفلسفى، وخاصة الفكر السياسى والاشتراكى، فكتب عن المذاهب السياسـية المعاصرة وعن: حقيقة الشـيوعية، الشيوعية والاشتراكية، الفوضوية، والجمعيات السـرية. كما كتب عن: شخصيات تاريخية[1] وكتابا موجزا بعنوان «تاريخ التاريخ» فى سلسـلة «كتابك» التى كانت تصدرها «دار المعارف» بمصر.

اهتماماته الفلسفية

تعرض على أدهم للتعريف بالكثير من الفلاسفة الغربيين والمشارقة علـى حد سـواء، كما عـرّف برؤاهم وفلسـفاتهم وما تركـوا من آثار ومؤلفات، من منطلق إيمانه العميق بما تلعبه الفلسـفة من دور مهم فى توسيع المدارك العقلية، وإرهاف الإحساس بالكون والحياة، مع تنوير العقول والأذهان، واستغراقها فى فيض من الإلهام والأحلام، والخيال الخصيـب، وتحريرهـا من غوائـل التعصب والتطرف وضيـق الفهم. وقد كتـب فى هذا المجال عدة كتب وكثير مـن الفصول والمقالات التى لم تُجْمَع بعـدُ فى كتاب. ومن هذه المؤلفات: «بين الفلسـفة والأدب»،

(١) صدر ضمن سلسلة «ذاكرة الكتابة» (٢٠٠٣). العدد رقم ٤٢. الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة.

و«نظرات فى الحياة والمجتمع»، و«لماذا يشقى الإنسان؟»، وفصل كبير حول «بوذا» نُشِرَ ضمن كتاب بعنوان «هُداة الإنسانية» فى سلسلة «اخترنا لك» التى كانت تصدرها دار المعارف بمصر. كما قام الرجل بترجمة «محاورات رينان» عام ١٩٢٩.

اهتمامه بالتراجم

ثمة مقولة لا أتذكر – على وجه التحقيق – قائلها، وفحواها أنه لا يُترجَم للأعلام إلا عَلم مثلهم. وقد أخذ على أدهم بجوانب العظمة فى العظيم مثلما فعل صديقه العقاد. بيْدَ أنه لم يُنصِّب نفسه مُحاميا عن العظماء مثلما فعل.

وقد تصدى على أدهم للترجمة لمجموعة من الشخصيات التاريخية مثل المعتمد بن عباد، وصقر قريش عبد الرحمن الداخل، ومنصور الأندلس، وأبو جعفر المنصور، وعبد الرحمن الناصر، كما تعرض لتقديم وتعريف بعض مؤرخى الإسلام، كما كتب أيضا عن متزينى. هذا، بخلاف مقالاته الكثيرة التى عرَّف ونوَّه فيها بعدد كبير من الكتاب والزعماء والفلاسفة والمؤرخين والشعراء، إلى غير ذلك من الشخصيات المرموقة عبر التاريخ.

رئيس التحرير

حينما تولى الرجل رئاسة تحرير مجلة شهرية، كان من نصيبه مجلة تعنى بما أحبه وارتبط به طيلة حياته، أقصد بذلك الكتاب،

فمجلـة «الكتـاب العربى» باسمهـا ومضمونها، كانت مُناسِـبَة تماما لهذا الرجل، اذى عشق القراءة و لثقافة والكتب، وأحبها أكثر من أىً شـىء آخر. ولكنه لم يتول رئاسة تحرير مجلة «عالم الفكر» كما ادعى الكاتب الصحفى الأستاذ شكرى القاضى فى كتابه «مائة شخصية مصرية وشخصية» الذى صدر ضمن مشروع مكتبة الأسرة لعام ١٩٩٩، حيث إن المجلة التى ذكرها الكاتب هى مجلة أصدرها «المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب» بدولة الكويت الشقيقة. ولعل الكاتب كان يقصد مجلة «الفكر المعاصر» المصرية، التى كانت تصدر فى سـتينيات وسـبعينيات القـرن الماضى، ولكن هذه أيضا لم يرأس تحريرها الأسـتاذ على أدهم، فقـد رأس تحريرها كل من الدكتور زكى نجيب محمود والدكتور فؤاد زكريا من بعده – رحمهما الله.

ومن مقالاته، التى تتناسـب ودور هذه المجلة، كتب الأستاذ مقالا ضافيا فى عدد يونيو سـنة ١٩٦٤ حول: «الكتاب ومكانته فى الحضارة الحديثة»، وفى بعض أجزائه يقول: ما أحسـب أن هناك خلافا فى أن الكتاب عامـل مهم من عوامل الحضارة الحديثة، وأداة من خير أدوات التثقيـف.. ولكل كتاب قصة، فهو يولد فى ذهن المؤلف ويرتدى الثوب الذى يخلعه عليه الناشـر، فالكتاب يمثـل عملا خلاقا وعملا آليا معا. وهناك وسـيلتان لاكتسـاب تجارب الحياة: الوسـيلة الأولى ممارسة التجربـة والتفـرد باحتمال تبعتهـا ومعاناة نتيجتها، أما الوسـيلة

الثانية فهى مشاركة الآخرين تجاربهم والإفادة منها. والطريقة الأولى بطيئة وشاقة، والطريقة الثانية سهلة ومُيسّرة. ولا تُكلفُنا أكثر من قراءة الكتب فى عناية واهتمام. فالكتب تحمل حكمة الإنسان من مكان إلى مكان، وعبر القرون المتوالية، وكلما كانت أمينة صادقة لا تبلى جدتها ولا يعفى أثرها. والتجارب المُسجلة فى الكتب تتحدى حدود الزمان والمكان، والذين يعدون أنفسهم عمليين ولا يعنون بالكتب، عليهم أن يعلموا أن كل وسائل الراحة والرفاهية فى هذا العصر مثل الكهرباء والسيارات والطائرات وما إلى ذلك من مظاهر المدنية كان اختراعها وما أدخل عليها من تحسين ثمرة من ثمرات تعاون البشرية خلال مرّ العصور عن طريق الكتب[1]!

(١) على أدهم (١٩٦٤). مقال نشر فى عدد يونيو سنة ١٩٦٤فى مجلة «الكتاب العربى»، التى كان يرأس تحريرها الأستاذ على أدهم.